

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَعْمَالِ عَلَى الْأَعْمَالِ وَيُؤَدِّعُكَ وَأَمَّا قَوْلُ اللَّهِ
 وَأَمَّا قَوْلُ اللَّهِ وَتَسْتَأْذِنُكَ وَالطَّبَعُ وَاللَّهُ وَتَسْتَأْذِنُكَ
 لِيُؤَيِّدَكَ ﴿١٥٦﴾ إِنَّمَا لِلَّذِينَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكِتَابِ
 قَوْلُهُمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَلَمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٥٧﴾
 يَسْتَأْذِنُكَ ﴿١٥٨﴾ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَى اللَّهُ
 رُؤْيَاهُمْ وَمَعْرُوفَهُ وَيَزِدُّكَ كَيْدًا ﴿١٥٩﴾ كَمَا أَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ
 مِنْ نَجْوَى يَأْتِيكَ وَأَنَّ قُرْبَانَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لَسَعِيرٌ ﴿١٦٠﴾
 ﴿١٦١﴾ يَجْعَلُ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ مَتَاعًا كَثِيرًا ﴿١٦٢﴾ كَمَا أَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ
 النَّزِيرُ ﴿١٦٣﴾ وَلَا تَجِدُ أُمَّةَ نَجِيًّا وَلَا تَجِدُ أُمَّةَ نَجِيًّا
 إِنَّمَا تَكْفُرُ لِرُبُوبِكَ إِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ لَكَاكِبٍ ﴿١٦٤﴾
 وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَوِّطَ لَكُمْ فِي دِينِكُمْ وَيُؤَيِّدَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 لِيُحَرِّقَ أُمَّةً مِمَّنْ يُسَيِّئُ لِلطَّبَعِ وَاللَّهُ وَتَسْتَأْذِنُكَ ﴿١٦٥﴾

والسلام، يتضرع إلى الله ويتبتل ويقول: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل أن يحضروا ويكونوا في حالة يعتذرون فيها لقومهم، فصاروا هم الظالمين﴾ أهلكتنا بما فعل السفهاء منا. أي: ضعفاء العقول، سفهاء الأحلام، فتضرع إلى الله واعتذر بأن المتجربين على الله ليس لهم عقول كاملة، تردعهم عما قالوا وفعلوا، وبأنهم حصل لهم فتنة يحظر بها الإنسان، ويخاف من ذهاب دينه فقال: ﴿إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ أي: أنت خير من غفر، وأولى من رحم، وأكرم من أعطى وتفضل، فكان موسى عليه الصلاة والسلام قال: المقصود يارب بالقصد الأول لنا كلنا، هو التزام طاعتك والإيمان بك، وأن من حضره عقله ورشده، وتم على ما وهبته من التوفيق، فإنه لم يزل مستقيماً، وأما من ضعف عقله، وسفه رأيه، وصرفته الفتنة، فهو الذي فعل ما فعل، لذبتك السببين، ومع هذا فأنت أرحم الراحمين، وخير الغافرين، فاغفر لنا وارحمنا.

﴿١٥٦﴾ فأجاب الله سؤاله، وأحياهم من بعد موتهم، وغفر لهم

وكيائتر، وصغائرهم ثم تابوا من بعدها بأن ندموا على ما مضى وأقلعوا عنها، وعزموا على أن لا يعودوا ﴿وآمنوا﴾ بالله وبما أوجب الله من الإيمان به، ولا يتم الإيمان إلا بأعمال القلوب، وأعمال الجوارح المترتبة على الإيمان ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي: بعد هذه الحالة، حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات، ﴿لغفور﴾ يغفر السيئات ويمحوها، ولو كانت قراب الأرض ﴿رحيم﴾ يقبول التوبة، والتوفيق لأفعال الخير وقبولها.

﴿ولما سكنت عن موسى الغضب﴾ أي: سكن غضبه، وتراجعت نفسه، وعرف ما هو فيه، اشتغل بأهم الأشياء عنده، ف﴿أخذ الألواح﴾ التي ألقاها، وهي ألواح عظيمة المقدار، جلييلة ﴿وفى نسختها﴾ أي: مستحسنة ومتضمنة ﴿هدى ورحمة﴾ أي: فيها الهدى من الضلالة، وبيان الحق من الباطل، وأعمال الخير وأعمال الشر، والهدى لأحسن الأعمال، والأخلاق، والآداب، ورحمة وسعادة لمن عمل بها، وعلم أحكامها ومعانيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك ويستقاد له، ويتلقاه بالقبول الذين لهم ﴿الربهم يرهبون﴾ أي: يخافون منه ويخشونه، وأما من لم يخف الله ولا المقام بين يديه، فإنه لا يزداد بها إلا اعتواً ونفوراً، وتقوم عليه حجة الله فيها.

﴿و﴾ لما تاب بنو إسرائيل وتراجعوا إلى رشدهم ﴿اختار موسى﴾ منهم ﴿سبعين رجلاً﴾ من خيارهم، ليعتذروا لقومهم عند ربهم، ووعدهم الله ميثاقاً يحضرون فيه، فلما حضروا، قالوا: يا موسى، ﴿أرنا الله جهرة﴾ فتجرؤوا على الله جراءة كبيرة، وأسأوا الأدب معه، ف﴿أخذتهم الرجفة﴾ فصعقوا وهلكوا.

فلم يزل موسى عليه الصلاة

تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل، ولم ترقب قولي ﴿وقال﴾ هنا ﴿ابن أم﴾ هذا تريق لأخيه، بذكر الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه: ﴿إن القوم استضعفوني﴾ أي: احتقروني حين قلت لهم: ﴿يا قوم إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن، فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾ ﴿وكادوا يقتلونني﴾ أي: فلا تظن بي تقصيراً ﴿فلا تشمت بي الأعداء﴾ بنهرك لي، ومنك إيبي بسوء، فإن الأعداء حريصون على أن يجردوا على عثرة، أو يطلعوا لي على زلة ﴿ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ فتعاملني معاملتهم.

فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته، مما ظن فيه من التقصير، و﴿قال رب اغفر لي ولأخي﴾ هارون ﴿وأدخلنا في رحمتك﴾ أي: في وسطها، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب، فإنها حصن حصين من جميع الشورور، و﴿ثم كل خير وسورور﴾ وأنت أرحم الراحمين﴾ أي: أرحم بنا من كل راحم، أرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا وأولادنا وأنفسنا، قال الله تعالى مبيناً حال أهل العجل الذين عبيده: ﴿إن الذين اتخذوا العجل﴾ أي: إنهم ﴿سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا﴾ كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره.

﴿وكذلك نجزي الفئتين﴾ فكل مفر على الله كاذب على شرعه، متقول عليه منام يقل، فإن له نصيباً من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا، وقد نالهم غضب الله، حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، وأنه لا يرضى الله عنهم إلا بذلك، فقتل بعضهم بعضاً، وانجلت المعركة عن كثير من القتلى^(١)، ثم تاب الله عليهم بعد ذلك، ولهذا ذكر حكماً عاماً يدخلون فيه هم وغيرهم، فقال: ﴿والذين عملوا السيئات﴾ من شرك

(١) في النسختين: قتلى كثيرة. (٢) زيادة من هامش ب.

جعل منهم هداة يهدون بأمره .
وكان الإتيان بهذه الآية الكريمة فيه نوع احتراز مما تقدم، فإنه تعالى ذكر فيما تقدم جملة من معائب بني إسرائيل، المنافية للكمال المناقضة للهداية، فربما توهم متوهم أن هذا يعم جميعهم، فذكر تعالى أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهتدية .

﴿١٦٠﴾ ﴿وقطعناهم﴾ أي: قسمناهم ﴿اثنتي عشرة أسباطاً أما﴾ أي: اثني عشرة قبيلة متعارفة متوافقة، كل بني رجل من أولاد يعقوب قبيلة .
﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسفاه قومه﴾ أي: طلبوا منه أن يدعو الله تعالى، أن يسقيهم ماء يشربون منه وتشرب منه مواشيهم، وذلك لأنهم - والله أعلم - في محل قليل الماء .

فأوحى الله لموسى إجابة لطلبتهم ﴿أن اضرب بعصاك الحجر﴾ يحتمل أنه حجر معين، ويحتمل أنه اسم جنس، يشمل أي حجر كان، فضربه ﴿فانجست﴾ أي: انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً جارية سارحة .

﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ أي: قد قسم على كل قبيلة من تلك القبائل الاثني عشرة، وجعل لكل منهم عيناً، فعلموها واطمأنوا، واستراحوا من التعب والمزاحمة، والخاصمة، وهذا من تمام نعمة الله عليهم .

﴿وظللنا عليهم الغمام﴾ فكان يستريحون من حر الشمس ﴿وأنزّلنا عليهم المن﴾ وهو الخلوي، ﴿والسلوى﴾ وهو لحم طير من أحسن أنواع الطيور وأذها، فجمع الله لهم بين الظلال، والشراب، والطعام الطيب، من الخلوي واللحم، على وجه الراحة والطمأنينة .

وقيل لهم: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا﴾ حين لم يشكروا الله، ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم .
﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾

حيث فوتوها كل خير، وعرضوها للشر والنقمة، وهذا كان مدة لبثهم في التيه .

﴿١٦١﴾ ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية﴾ أي: ادخلوها لتكون وطناً لكم ومسكناً، وهي «إيلياء» و«كلوا منها حيث شئتم﴾ أي: قرية كانت كثيرة الأشجار، غزيرة الثمار، رغيدة العيش، فلذلك أمرهم الله أن يأكلوا منها حيث شاؤوا .

﴿وقولوا﴾ حين تدخلون الباب: ﴿حطة﴾ أي: احطط عنا خطايانا، واعف عنا .

﴿وادخلوا الباب سجداً﴾ أي: خاضعين لربكم مستكينين لعزته، شاكرين لنعمته، فأمرهم بالخضوع وسؤال المغفرة، ووعدهم على ذلك مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والأجل فقال: ﴿نفقر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين﴾ من خير الدنيا والآخرة، فلم يمتثلوا هذا الأمر الإلهي، بل ﴿بدل الذين ظلموا منهم﴾ أي: عصوا الله واستهانوا بأمره ﴿قولاً غير الذي قيل لهم﴾ فقالوا بدل طلب المغفرة، وقولهم: ﴿حطة﴾، (حبة في شعيرة)، وإذا بدلوا القول - مع يسره وسهولته - فتبدلهم للفعل من باب أولى، ولهذا دخلوا وهم يزحفون على أستاههم .

﴿فأرسلنا عليهم﴾ حين خالفوا أمر الله وعصوه ﴿رجزاً من السماء﴾ أي: عذاباً شديداً، إما الطاعون وإما غيره من العقوبات السماوية .

وما ظلمهم الله بعقابه وإنما كان ذلك ﴿بما كانوا يظلمون﴾ أي: يخرجون من طاعة الله إلى معصيته، من غير ضرورة الجأهم ولا داع دعاهم سوى الخبث والشر الذي كان كامناً في نفوسهم .

﴿١٦٢﴾ ﴿واسألهم﴾ أي: اسأل بني إسرائيل ﴿عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ أي: على ساحله في حال تعديهم وعقاب الله إياهم .



﴿إذ يعدون في السبت﴾ وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيداً، فابتلاههم الله وامتحانهم، فكانت الحيتان تأتيهم ﴿يوم سبتهم شرعاً﴾ أي: كثيرة طافية على وجه البحر .

﴿ويوم لا يسبون﴾ أي: إذا ذهب يوم السبت ﴿لا تأتيهم﴾ أي: تذهب في البحر فلا يرون منها شيئاً كذلك نيلوهم بما كانوا يفسقون، ففسقهم هو الذي أوجب أن يتبليهم^(١) الله، وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا فلولم يفسقوا، لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر، فتحيلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفراً، ويتصنون لها الشباك، فإذا جاء يوم السبت ووقعت في تلك الحفر والشباك، لم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسموا ثلاث فرق:

﴿١٦٤﴾ معظمهم اعتدوا وتجروا، وأعلمنا بذلك .
وفرقة أعلنت بنهيمهم والإنكار عليهم .

وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم، ونهيمهم لهم، وقالوا لهم: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ كأنهم يقولون: لا فائدة في

(١) كذا في ب، وفي أ: يبلهم .

بعدمهم خلف. زاد شرهم ﴿ورثوا﴾ بعدمهم ﴿الكتاب﴾ وصار المرجع فيه إليهم، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم، وتبذل لهم الأموال، ليفتوا ويحكموا بغير الحق، وفشت فيهم الرشوة.

﴿ياخذون عرض هذا الأدنى ويقولون﴾ مقرين بأنه ذنب وأنهم ظلمة: ﴿سيغفر لنا﴾ وهذا قول خال من الحقيقة، فإنه ليس استغفاراً وطلباً للمغفرة على الحقيقة.

فلو كان ذلك لندموا على ما فعلوا، وعزموا على أن لا يعودوا، ولكنهم - إذا أتاهم عرض آخر، ورشوة أخرى - يأخذوه.

فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، قال الله [تعالى] في الإنكار عليهم، وبيان جرائمهم: ﴿لم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ فما بالهم يقولون عليه غير الحق اتباعاً لأهوائهم، وميلاً مع مطامعهم. ﴿وإن حال أنهم قد درسوا ما فيه﴾ فليس عليهم فيه إشكال، بل قد أتوا أمرهم متعمدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين، وهذا أعظم للذنب، وأشد للوم، وأشنع للعقوبة، وهذا من نقص عقولهم، وسفاهة رأيهم، بإيثار الحياة الدنيا على الآخرة، ولهذا قال: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ ما حرم الله عليهم، من المأكَل التي تصاب، وتؤكل رشوة على الحكم بغير ما أنزل الله، وغير ذلك من أنواع المحرمات.

﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إثاره، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسمي إليه، والتقديم له على غيره، فخاصية العقل النظر للمواقب.

وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع، يفوت نعيماً عظيماً باقياً فأنى له العقل والرأي!!

وإنما العقلاء حقيقة من وصفهم الله بقوله: ﴿والذين يسكون

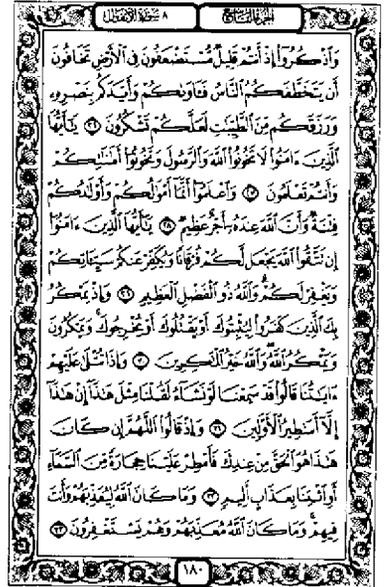
بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون، فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، فافتقوا بإنكار أولئك، ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ فأبدوا من غضبهم عليهم، ما يقتضي أنهم كارهون أشد الكراهة لفعالهم، وأن الله سيعاقبهم أشد العقوبة.

﴿١٦٦﴾ ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ أي: فسوا فلم يلبسوا ولا اتعظوا، ﴿قلنا لهم﴾ قولاً قدرياً: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ فانقلبوا بإذن الله قردة، وأبعدهم الله من رحمته، ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم فقال: ﴿وإذ تأذن ربك﴾ أي: أعلم إعلاماً صريحاً: ﴿ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ أي: يبيتهم ويذلهم.

﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ لمن عصاه، حتى إنه يعجل له العقوبة في الدنيا. ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن تاب إليه وأتاب، يغفر له الذنوب، ويستمر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبل منه الطاعات، ويثيبه عليها بأنواع الثواب، وقد فعل الله بهم ما أوعدهم به، فلا يزالون في ذل وإهانة تحت حكم غيرهم، لا تقوم لهم راية، ولا ينصر لهم علم.

﴿١٦٨﴾ ﴿وقطعناهم في الأرض أممًا﴾ أي: فرقناهم ومزقتناهم في الأرض بعدما كانوا مجتمعين، ﴿منهم الصالحون﴾ القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، ﴿ومنهم دون ذلك﴾ أي: دون الصلاح، إما مقتصدون، وإما ظالمون لأنفسهم، ﴿وبلوناهم﴾ على عادتنا وسنتنا، ﴿بالحسنات والسيئات﴾ أي: بالعسر واليسر.

﴿لعلهم يرجعون﴾ عما هم عليه مقيمون من الردى، يراجعون ما خلقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين صالح وطالح ومقتصد، حتى خلف من



وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يصنع للنصيح، بل استمر على اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بد أن يعاقبهم الله، إما بهلاك أو عذاب شديد.

فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم ﴿معذرة إلى ربكم﴾ أي: لتعذر فيهم. ﴿ولعلهم يتقون﴾ أي: يتركون ما هم فيه من المعصية، فلا نبأس من هدايتهم، وربما نجح فيهم الوعظ، وأثر فيهم اللوم.

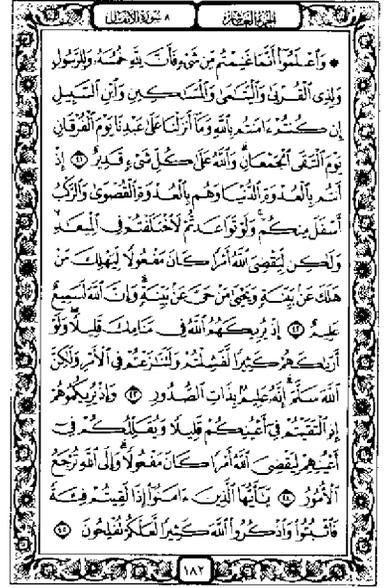
وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر ليكون معذرة، وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي.

﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي: تركوا ما ذكروا به، واستمروا على غيرهم واعتدائهم.

﴿أنجينا﴾ من العذاب ﴿الذين ينهون عن النسوة﴾ وهكذا سنة الله في عباده، أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾ وهم الذين اعتدوا في السبت ﴿بعذاب بشيس﴾ أي: شديد ﴿بما كانوا يسفون﴾

وأما الفرقة الأخرى التي قالت للناهين: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾ فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين، لأن الله خص الهلاك



التبعين إبليس اللعين: ﴿ولقد ذرأنا﴾ أي: أنشأنا وبشئنا ﴿لجنهم كثيراً من الجن والإنس﴾ صارت البهائم أحسن حالة منهم.

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ أي: لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد قيام الحجة.

﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ ما يفقههم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها.

﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم.

﴿أولئك﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كالأنعام﴾ أي: البهائم، التي فقدت العقول، وهؤلاء أثروا ما يقنى على ما يبقى، فسلبوا خاصية العقل.

﴿بل هم أضل﴾ من البهائم، فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان تدرك بها، مضرتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالاً منهم.

﴿أولئك هم الغافلون﴾ الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره.

خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار، لتكون عوناً لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود.

فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممن ذرأ الله لجنهم وخلقهم لها، فخلقهم للنار، وبأعمال أهلها يعملون.

وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة الله، وانصيح قلبه بالإيمان بالله ومحبه، ولم يغفل عن الله، فهؤلاء أهل الجنة، وبأعمال أهل الجنة يعملون.

﴿١٨٠﴾ ﴿والله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائهم سيجزون ما كانوا يعملون﴾ هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه، بأن له الأسماء الحسنى، أي: له كل اسم حسن، وضابطه: أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى، فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت علماً محضاً لم تكن حسنى، وكذلك لو دلت على صفة ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة

حريصاً حرصاً قاطعاً قلبه، لا يسد فاقته شيء من الدنيا.

﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ بعد أن ساءها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، بل كذبوا بها وردوها، لهوائهم على الله، واتباعهم لأهوائهم، بغير هدى من الله.

﴿فانقص القصص لعلمهم يتفكرون﴾ في ضرب الأمثال، وفي العبر والآيات، فإذا تفكروا علموا، وإذا علموا عملوا.

﴿١٧٧﴾ ﴿ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ أي: ساء وقبح، مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه بأنواع المعاصي، فإن مثلهم مثل السوء، وهذا الذي أتاه الله آياته، يشمل أن المراد به شخص معين، قد كان منه ما ذكره الله، فقص الله قصته تنبيهاً للعباد. ويشمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من أتاه الله آياته فانسلخ منها.

وفي هذه الآيات الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه، وفيه أن اتباع الهوى، وإخلاق العبد إلى الشهوات، يكون سبباً للخذلان.

﴿١٧٨﴾ ﴿ثم قال تعال مبيناً أنه المنفرد بالهداية والإضلال: ﴿من يهد الله﴾ بأن يوفقه للخيرات، ويعصمه من المكروهات، ويعلمه ما لم يكن يعلم ﴿فهو المهتدي﴾ حقاً لأنه أثر هدايته تعالى، ﴿ومن يضلل﴾ فيخذه ولا يوفقه للخير ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿١٧٩﴾ ﴿ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ يقول تعال مبيناً كثرة الغاوين الضالين،

آياتنا﴾ أي: علمناه علم كتاب الله، فصار العالم الكبير والحبر النحرير.

﴿فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان﴾ أي: انسلخ من الانصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فإن العلم بذلك، يصير صاحبه متصفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبد الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلصها كما يخلص اللباس.

فلما انسلخ منها أتبعه الشيطان، أي: تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين، فآذنه إلى المعاصي أزرأ. ﴿فكان من الغاوين﴾ بعد أن كان من الراشدين المرشدين، وهذا لأن الله تعالى خذله ووكله إلى نفسه، فلهاذا قال تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ بأن نوقفه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصن من أعدائه.

﴿ولكنه﴾ فعل ما يقتضي الخذلان، فأخذل إلى الأرض، أي: إلى الشهوات السفلية، والمقاصد الدنيوية، ﴿وأتبع هواه﴾ وترك طاعة مولاه، ﴿فمثله﴾ في شدة حرصه على الدنيا وانقطاع قلبه إليها، ﴿كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ أي: لا يزال لاهثاً في كل حال، وهذا لا يزال

أتمها، ولا من العقل والرأي: إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر.

أفيهذا يا أولي الأبواب من جنة؟! أم هو الإمام العظيم والناصح المبين، والماجد الكريم، والرؤوف الرحيم؟! ولهذا قال: ﴿إن هو إلا نذير مبين﴾ أي: يدعو الخلق إلى ما ينتجهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب.

﴿١٨٥﴾ ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض﴾ فإنهم إذا نظروا إليها وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها، وعلى ماله من صفات الكمال.

﴿و﴾ كذلك لينظروا إلى جميع ﴿ما خلق الله من شيء﴾ فإن جميع أجزاء العالم يدل أعظم دلالة على علم الله وقدرته وحكمته وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته، وغير ذلك من صفاته العظيمة، الأدلة على تفرده بالخلق والتدبير، الموجبة لأن يكون هو العبود المحمود، المسبح الموحد المحبوب.

وقوله: ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ أي: لينظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم، ويفجأهم الموت وهم في غفلة معرضون، فلا يتمكنون حينئذ من استدراك الفارط.

﴿فيأبي: حديث بعده يؤمنون﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فأبي: حديث يؤمنون به!!! أليكتب الكذب والضلال؟ أم بحديث كل مفتر دجال؟

ولكن الضال لا حيلة فيه، ولا سبيل إلى هديته، ولهذا قال تعالى: ﴿من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي: متحيرين^(١) يترددون، لا يخرجون منه ولا يهتدون إلى حق.

﴿١٨٧﴾ ﴿يسألونك عن الساعة إيانا مرساها قل إنما علمها عند ربنا لا يجلبها لوقتها إلا هو ثقلت في

﴿وبه يعدلون﴾ بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقوق والمقاتلات، وغير ذلك، وهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصايح الدجا، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله وعلو منزلته، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

﴿١٨٢﴾ ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملئ لهم إن كيدي متين أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي: والذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الهدى فردوها ولم يقبلوها. ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ بأن يدر لهم الأرزاق. ﴿وأملئ لهم﴾ أي: أمهلهم حتى ينظروا أنهم لا يؤخذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفراً وطغياناً، وشرأ إلى شرهم، وبذلك تزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث لا يشعرون، ولهذا قال: ﴿إن كيدي متين﴾ أي: قوي بليغ.

﴿١٨٤﴾ ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم﴾ محمد ﷺ ﴿من جنة﴾ أي: أو لم يعملوا أفكارهم، وينظروا هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه، ودلته وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا

منقسمة إلى المدح والقدح، لم تكن حسنى، فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها.

وذلك نحو «العليم» الدال على أن له علماً محيطاً عاماً لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

و«الكارحيم» الدال على أن له رحمة عظيمة واسعة لكل شيء.

و«كالتقدير» الدال على أن له قدرة عامة، لا يعجزها شيء، ونحو ذلك.

ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فادعوه بها﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلاً: اللهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب علي يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائهم سيجزون ما كانوا يعملون﴾ أي: عقوبة وعذاباً على إلحادهم في أسمائهم، وحقبة الإلحاد الميل بها عما جعلت له، إما بأن يسمى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لألتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أراد الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها، فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة».

﴿١٨١﴾ وقوله: ﴿ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ أي: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة كاملة في نفسها، مكملة لغيرها، يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق، فيعلمون الحق ويعملون به، ويعلمونه، ويدعون إليه وإلى العمل به.

نقعه ﷺ، الذي فاق نفع الآباء والأمهات، والأخلاء والإخوان بما حث العباد على كل خير، وحذره من كل شر، وبينه لهم غاية البيان والإيضاح.

﴿١٨٩﴾ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحاً جعلاه شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون * أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون * ولا يستطعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون ﴿١٨٩﴾ أي: هو الذي خلقكم، أيها الرجال والنساء، المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقتكم. ﴿من نفس واحدة﴾ وهو آدم أبو البشر ﷺ.

﴿وجعل منها زوجها﴾ أي: خلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمam الشهوة.

﴿فلما تغشاها﴾ أي: تجملها بجماع لها قدر الباري أن يوجد من تلك الشهوة وذلك الجماع النسل، [وحيثاً^(١) حملت حملاً خفيفاً، وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنثى، ولا يتقلها.

﴿فلما﴾ استمرت به و ﴿أثقلت﴾ به حين كبر في بطنها، فحينئذ صار في قلوبها الشفقة على الولد، وعلى خروجه حياً صحيحاً، سالماً لا آفة فيه^(٢) [كذلك]، فدعوا الله ربهما لئن آتيتنا ولدًا ﴿صالحاً﴾ أي: صالح

ويدعون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه، ولا هم مطالبون بعلمه.

﴿١٨٨﴾ قل لا أملك لنفسي نصعاً ولا ضراً، فإنني فقير مدبر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى.

﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكرهه، لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تفضي إليه.

ولكني - لعدم علمي - قد ينالني ما ينالني من السوء، وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أدل دليل على أني لا أعلم لي بالغيب.

﴿إن أنا إلا نذير﴾ أنذر العقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المقضية إلى ذلك، وأحذر منها.

﴿ويشير﴾ بالشواهد العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما ينتفع بذلك ويقبله المؤمنون، وهذه الآيات الكريمات، مبنية جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضرر.

فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينتفع من لم يتفقه الله، ولا يدفع الضرر عن من لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله تعالى، وإنما ينتفع من قبل ما أرسل به من البشارة والنذارة، وعمل بذلك، فهذا

السموات والأرض لا تأتيكم إلا بفتنة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون * قل لا أملك لنفسي نصعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴿١٨٨﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿يسألونك﴾ أي: المكذوبون لك، المتعنتون ﴿عن الساعة﴾ أي: متى وقتها الذي تجيء به، ومتى تجل بالخلق؟

﴿قل إنما علمها عند ربِّي﴾ أي: إنه تعالى مختص بعلمها، ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ أي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو.

﴿ثقلت في السماوات والأرض﴾ أي: خفي علمها على أهل السماوات والأرض، واشتد أمرها أيضاً عليهم، فهم من الساعة مشفقون.

﴿لا تأتاكم إلا بفتنة﴾ أي: فجأة من حيث لا تشعرون، لم يستعدوا لها، ولم يتهيؤوا لقيامها.

﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة، كأنك مستحف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك، وما ينفع السؤال عنه - غير مبال بالسؤال عنها، ولا حريص على ذلك، فليم لا يقتدون بك، ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة المتعذر علمه، فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكيمته وسعة علمه.

﴿قل إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصاً مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم،

الخلقة تامها، لا نقص فيه ﴿لكنكون من الشاكرين﴾

﴿فلما أتاهما صالحاً﴾ على وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة فيه ﴿جعلاً له شركاء فيما أتاهما﴾ أي: جعلاً له شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بإيجاده والنعمة به، وأقر به أعين والديه، فعبداه لغير الله. إما أن يسمياه بعبد غير الله كـ «عبد الحارث» و«عبد العزيز»^(١) و«عبد الكعبة» ونحو ذلك، أو يشركا بالله في العبادة، بعدما من الله عليهما بما من من النعم التي لا يحصيها أحد من العباد.

وهذا انتقال من النوع إلى الجنس، فإن أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل إلى الكلام في الجنس، ولا شك أن هذا موجود في الذرية كثيراً، فلذلك قررهم الله على بطلان الشرك، وأنهم في ذلك ظالمون أشد الظلم، سواء كان الشرك في الأقوال، أم في الأفعال، فإن الخالق لهم من نفس واحدة، الذي خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ما يسكن بعضهم إلى بعض، وبالفه، ويلتذ به، ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة واللذة، والأولاد والنسل.

ثم أوجد الذرية في بطون الأمهات، وقتاً موقتاً، تنشوف إليه نفوسهم، ويدعون الله أن يخرجهم سوياً صحيحاً، فأنتم الله عليهم النعمة وأنالهم مطلوبهم.

أفلا يستحق أن يعبدوه، ولا يشركوا به في عبادته أحداً، ويخلصوا له الدين، ولكن الأمر جاء على العكس، فأشركوا بالله من لا ﴿يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾ ولا يستطيعون لهم ﴿أي: لعابديها نصرأولا أنفسهم ينصرون﴾

فإذا كانت لا تخلق شيئاً، ولا مثقال ذرة، بل هي مخلوقة،

ولا تستطيع أن تدفع المكروه عن من يعبدها، بل ولا عن نفسها، فكيف تتخذ مع الله آلهة!!! إن هذا إلا أظلم الظلم، وأسفه السفه.

وإن تدعوا، أيها المشركون هذه الأصنام، التي عبدتم من دون الله ﴿إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أذعنتموهم أم أنتم صامتون﴾ فصار الإنسان أحسن حالة منها، لأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تهدي ولا تهدي، وكل هذا إذا تصوره اللبيب العاقل تصوراً مجرداً، جزم ببطلان إلهيتها، وسفاهة من عبدا.

﴿١٩٤ - ١٩٦﴾ **﴿إن الذين**

تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم أذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ وهذا من نوع التحدي للمشركين العابدين للأوثان، يقول تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ أي: لا فرق بينكم وبينهم، فكلكم عبيد لله مملوكون، فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئاً ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم﴾ فإن استجابوا لكم وحصلوا مطلوبكم، وإلا تبين أنكم كاذبون في هذه الدعوى، مفتررون على الله أعظم الفرية، وهذا لا يحتاج إلى التبين فيه، فإنكم إذا نظرت إليها وجدتم صورتها دالة على أنه ليس لديها من النفع شيء، فليس لها أرجل تمشي بها، ولا أيد تبطش بها، ولا أعين تبصر بها، ولا أذان تسمع بها، فهي عادمة لجميع الآلات والقوى الموجودة في الإنسان.

فإذا كانت لا تحيبيكم إذا دعوتوها، وهي عباد أمثالكم، بل أنتم أكمل منها وأقوى على كثير من الأشياء، فلاي:



شيء عبدتموها.

﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون﴾ أي: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم على إيقاع السوء والمكروه بي، من غير إسهال ولا إنظار^(٢)، فإنكم غير بالعين لشيء من المكروه بي، لأن وليي الله الذي يتولاني فيجلب لي المنافع ويدفع عني المضار.

﴿الذي نزل الكتاب﴾ الذي فيه الهدى والشفاء والتور، وهو من تولىته وتربيته لعباده الخاصة الدينية.

﴿وهو يتولى الصالحين﴾ الذين صلحت نياتهم وأعمالهم وأقوالهم، كما قال تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ فالمتؤمنون الصالحون لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى، ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع ولا يضر - تولاهم الله ولطف بهم وأعانهم على ما فيه الخير والمصلحة لهم، في دينهم ودنياهم، ودفع عنهم بإيمانهم كل مكروه، كما قال تعالى: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾.

﴿١٩٧﴾ **﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وإن تدعوهم إلى الهدى**

(٣) كذا في ب، وفي أ: انظار.

(٢) في ب: العزى.

(١) زيادة من هامش ب.



الذين اتقوا إذا مشهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون * وإخوانهم يمدونهم في النفي ثم لا يقصرون *

أي: أي وقت، وفي أي: حال * ينزغتك من الشيطان نزع * أي: تحس منه بوسوسة وتبسط عن الخير، أو حث على الشر وإبعاز إليه. * فاستعد بالله: أي: التجيء واعتصم بالله، واحتم بحماه فإنه * سميع * لما تقول. * عليهم * بنيتك وضعفك، وقوة التجائك له، فسيحملك من فتنته، ويقيك من وسوسته، كما قال تعالى * قل أعوذ برب الناس * إلى آخر السورة.

ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطاً ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي: باب أي، ومن أي: مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئاً حسيراً، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

وأما إخوان الشياطين وأولياؤهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب، لا يزالون يمدونهم في النفي ذنباً بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك، فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء، لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سلسي القياد لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

﴿٢٠٣﴾ * وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجبتنا قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون * أي: لا يزال هؤلاء المكذبون لك في تعنت وعناد،

لرسول الله ﷺ، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما يتوسمه المتوسمون فيك من الجمال والكمال والصدق.

﴿١٩٩﴾ * خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتشرح له صدورهم.

﴿وأمر بالعرف﴾ أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للمقرب والبعيد، فأجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو برّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي: مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل، بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه.

وأما ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الإنس والجن، فقال تعالى: ﴿٢٠٠﴾ * وإما ينزغتك من الشيطان نزع فاستعد بالله إنه سميع عليم * إن

لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون * وهذا أيضاً في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله لشيء من العبادة، لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار في نصر أنفسهم، ولا في نصر عابديها، وليس لها قوة العقل والاستجابة، فلو دعوتها إلى الهدى لم تهتد، وهي صور لا حياة فيها، فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون حقيقة، لأنهم صوروها على صور الحيوانات من آدميين أو غيرهم، وجعلوا لها أبصاراً وأعضاء، فإذا رأيتها قلت: هذه حية، فإذا تأملتها عرفت أنها جمادات لا حراك بها، ولا حياة، فبأي: رأي اتخذها المشركون آلهة مع الله؟ ولأي: مصلحة أو نفع عكفوا عندها وتقربوا لها بأنواع العبادات؟

فإذا عرف هذا، عرف أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها، ولو اجتمعوا وأرادوا أن يكيّدوا من تولاه فاطر الأرض والسماوات، متولي أحوال عباده الصالحين، لم يقدرُوا على كيدهم بمثقال ذرة من الشر، لكمال عجزهم وعجزها، وكمال قوة الله واقتداره، وقوة من احتسى بجلاله وتوكل عليه.

وقيل: إن معنى قوله: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ أن الضمير يعود إلى المشركين المكذابين